المحاضرة الأولى
الحضارة وتعريفاتها وإشكالية المفهوم
ورؤى القيام والسقوط

أولاً_ الحضارة وتعريفاتها:

نحن أمام تعريفات كثيرة للحضارة، وتختلط أحياناً بعض المصطلحات مع مصطلح الحضارة، كالثقافة والمدنية.

فبشكل عام؛ الحضارة لغة: هي الإقامة في الحَضَر أي المدن. واصطلاحاً: يعود أصلها الغربي إلى المدينة، وهنا يطابق الأصل العربي (الحاضرة) بمعنى المدينة، والمتحضر ساكن الحاضرة، وشاع في العربية: سكان الحواضر، وأهل الحواضر، في مقابل البادية وأهل البادية.

ولفظ الحضارة في مفهومه الحديث، ومفهومه العالمي المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعاً، مما كان يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي، وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر؛ فإن المعاجم اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي: الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي والاقتصادي في الحضر، وبعبارة أخرى أكثر شمولاً، هي: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية والفكر ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية، ولهذا كانت الحضارة هي: الخطة العريضة –كمَّاً وكيفاً– التي يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها: الحضارات القديمة، والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها: الأطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

ويمكن بالتالي تعريف الحضارة بالآتي: «إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ... والتنوع بأحوال الترف وما تتلون به من العوامل»[i].

وعرَّف ابن خلدون الحضارة، فقال: «هي نمط من الحياة المستقرة يُنشئ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة العيش والعمل»[ii].

ويمكن القول إن الحضارة بمعناها العام هي كل ما أبدعه الإنسان، وكل ما أضافه في رحلته الطويلة الشاقة على الأرض منذ تعلم إشعال النار قبل حوالي خمسة آلاف سنة ليقهر الليل ويبعد عنه الحيوانات المفترسة ويطهو طعامه، وصولاً الى تفتيت الذرة والهبوط على سطح القمر ونقل الصوت أو الصورة آلاف الكيلومترات.

والحقيقة أنه لا تخلو أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات؛ بدائية كانت أو متقدمة، من أن تكون لها ثقافة ما تربطها وتُكسبها طابعها المتميز، والثقافة هي طريقة في العيش وموقف من الحياة والوجود، ونظام قيمي واجتماعي يحكم مظاهر الحياة ومفرداتها جميعها، وينعكس في أشكال النشاط والسلوك كلها، ويمنح المجتمع هويته ويحافظ على تماسكه.

أما الحضارة فوصف زائد على الوجود الثقافي للجماعة، يتضمن معنى التقدم، والتفوق النوعي والكمي، والإنجاز على مستوى الواقع، ودرجة ملحوظة من التأثير في المحيط التاريخي، وفاعلية في صنع أحداثه وتوجيهها؛ فاعليلة قد تصل حد تشكيل منعطف ومفصل مشع فيه؛ زمانياً ومكانياً.

ويمتاز اللفظ العربي (حضارة) المشتق من الحضور في الدلالة على معنى الفاعلية، فالعلامة الفارقة في الفعل الحضاري هي حضور المشهد التاريخي وشهوده وعدم الغياب عنه وتأدية دور فيه، وكثير من المجتمعات الإنسانية تقتصر على مجرد الوجود دون الحضور، ومن ثم لا يمكن إطلاق مفهوم الحضارة عليها مهما كان نتاجها الذهني والمادي، طالما وقفت فقط عند مجرد الوجود.

وإذا كانت كل حضارة تمتلك خصوصية ثقافية هي بمثابة الروح لها، فإن الحضارة ليست لازمة لوجود الأمة الثقافي.

وإذا أردنا تعريف الحضارة هنا؛ فهي دراسة الحضارة كظاهرة أساسية من مظاهر الماضي الإنساني، أمر ارتقى في العصر الحديث بأوروبة كسائر الدراسات الأخرى، إذ دلّوا عليه باسم: civilization الذي دخل مصطلح العلوم متأخراً في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، والكلمة مشتقة من سكان المدن، ولذلك ترادف كلمة المدنية من ناحية لغوية، أما ترجمتها العربية (حضارة)؛ فيعني لغوياً: الشيء نفسه؛ لأن الحضارة بفتح الحاء أو كسرها، تعني سكان الحضر أو خلاف البادية، والبادية في عرف العرب ليست الصحراء فقط دائماً بل تشمل الريف أيضاً، فالحضارة والحالة هذه مطابقة أيضاً للمدنية، والحضارة في مفهومها العام هي حركة المجتمع ونشاطه بجوانبه كافة، المادية منها والمعنوية وتشمل صنع الخيرات المادية وإنتاجها، والمعارف العلمية والمذاهب والأفكار الفلسفية، كما تشمل النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والإنجازات الفكرية والحقوقية والفنية والقيم والتقاليد والمؤسسات المختلفة.

إن الحضارة هي الحصيلة التراكمية التاريخية لمسيرة أي شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات، إنها البنية الكلية، والمحصلة العليا لإنجازاته في الميادين كافة، بحيث تُظهر هذه الإنجازات بمظاهرها المتعددة وبُناها المختلفة، نسيجاً متكاملاً ومتفاعلاً ذا وحدة عضوية، يحمل في إطاره طابع الشعب الذي أسهم في إنتاج هذه المعطيات التي تعبر عن فعاليته وقدراته وتجسّد إبداعاته المختلفة[iii].

أما المدنية: فهي الجانب المادي من مظاهر الحضارة، وهي ما أنتجه العقل الإنساني من مخترعات متطورة.

والثقافة: هي الجانب المعنوي من مظاهر الحضارة، وتعني: العلم والمعرفة والآداب والفنون [iv].

ونأتي إلى الحضارة في المدلول الإسلامي:

إن الحضارة هنا هي الحضور والشهادة بمعانيها جميعها التي ينتج عنها نموذج إنساني، يستبطن قيم

التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي، يتعلق بوحدانية خالق الكون، وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته هي في تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بميزاتها، وحسن التعامل مع المسخّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنها مخلوقات تسبح الله، أو رزق لا بد من حفظه وصيانته. كذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة، وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة[v].

ونأتي إلى تعريف الحضارة عند بعض فلاسفة الغرب:

ــ يقول ول ديورنت: إنها نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

ــ ويقول جورج باستيد: الحضارة هي التدخل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التمرد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاص العناء البشري.

ــ ويقول تايلر: إنها ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون والآداب، والقوانين والعادات، والقدرات والتقاليد الأخرى جميعها التي يكسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع[vi].

ثانياً– ابن خلدون والبعد الديني في الحضارات والتفسير الإسلامي للحضارة:

يبدو أن ابن خلدون قد أدرك الفرق بين الثقافة والحضارة، وذلك في قوله تحت عنوان: (في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر):«وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ قال صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه: فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده. وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم...» [vii].

وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير، فهو إذن يفرق بين العمران والحضارة، ويبدو أن العمران في مفهومه يقابل الثقافة، فهو يقول في خاتمة الكتاب الأول من المقدمة وعنوانه: (في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما إلى ذلك من العلل)، يقول: «اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من

الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات... إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد»[viii].

ويؤكد ابن خلدون على أن الحضارة تمثل الطور الحرج من أطوار الدولة، والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال من عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت تفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، وتقع وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه.

ويعد ابن خلدون من أفضل من استعملوا المذهب الديني في تفسير التاريخ، فإنه يفكر في كل شيء، ويبحث عن أسرار التاريخ والعمران وحركتها بحثاً طويلاً، ويدرس أحوال المدن والدول ونظمها والمجتمعات وما يطرأ عليها.

لقد حاول ابن خلدون أن يبين الظاهرة التي يتناولها بالتحليل والتفسير من السنن الاجتماعية التي لا تتبدل، وهكذا يمكن القول: إنه اهتدى إلى وضع علمه الجديد بتدبره للتصورات الاجتماعية والتاريخية الواردة في القرآن الكريم من جهة، وباهتدائه بمنهج علم الحديث وأصول الفقه من جهة أخرى، وبناء على ذلك يمكن القول: إن علم الاجتماع الخلدوني هو نتاج التفكير العلمي الإسلامي الذي ينشد فهم سنن الله في العلم المادي والعالم الاجتماعي على حد سواء، ويظهر اعتماد ابن خلدون على القرآن الكريم من السطور الأولى التي بدأ بها مقدمته، ويكفي أن نشير إلى أن تسميته لعلمه الجديد «علم العمران» استمده من القرآن الكريم[ix] في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[x].

ومن الأهمية البالغة الإشارة إلى أن كلمتي (حضارة) و(تحضير) لم تكونا شائعتين في استعمالات العربية اللغوية في البداية وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية، وإذا كان ابن خلدون قد نبّه عليهما واستخدمهما في مقدمته، إلا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو «العمران البشري» الذي يقابل الحضارة البشرية.

وقد وقع كثير من الباحثين في خطأ القول إن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج، وأنه لا توجد أية محاولة لتقديم مفهوم متكامل عن الحضارة وفقاً للمنظور الإسلامي.

فنحن حين نتأمل النص القرآني، يمكننا العثور على إجابات متعددة لعشرات التساؤلات التي تثار حول الإشكاليات الحضارية ومحاولة فهمها وهذا يؤكد دور الفكرة الدينية في تكوين العمران والحضارة، وبذلك تؤدي فعاليتها دورها في حركة التاريخ[xi].

والأمثلة التاريخية عن الحضارات القديمة كثيرة، فالبعد الديني في الحضارة المصرية القديمة أدى دوراً مهماً في تبديه في كل مظهر من مظاهر الحياة عند الفراعنة، حيث اصطبغ بالصبغة الدينية، فالسياسة والفن والأخلاق والعلم تأثروا بالدين، وارتبطوا به ارتباطاً ترك بصماته على حياة الإنسان المصري القديم، ولقد بذل هؤلاء كثيراً من مالهم ووقتهم وجهودهم في بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك ضمن عقائدهم الخاصة حول البعث، وقد دفنوا مع موتاهم أدواتهم التي كانوا يستخدمونها قبل الموت[xii].

وحظيت الديانة الكونفوشوسية في الصين بأهمية كبيرة في التاريخ الصيني، وأصبحت تعاليمها ممثلة للتراث الفكري للشعب الصيني، وكانت ذا علاقة بالتراث الأخلاقي والفكري لمجتمعه وبيئته. واعتقد البوذيون بالتناسخ الذي كان له أثره في تعامل البوذي في الحياة[xiii].

وفي الهند مثّل الإطاران الديني والفلسفي أهم ما أنتجته الآداب الهندية على مدار التاريخ، ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة البرهمية الهندية اسم (الفيدا) ومعناها المعرفة أو العلم[xiv].

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية الفارسية اسم (الأبستاق أو الأوستا) ومعناه الأصل أو الأساس، وهذه الزرادشتية استُعملت على شكل من الدين مصدره فارس القديمة، وتشكل الألوهية العنصر المركزي في هذه الديانة[xv].

وعند اليونان: تعد (الإلياذة والأوديسة) من أقوى عوامل التجمع الفكري والوجداني لبلاد اليونان، وتنسبان إلى هوميروس، وفي الملحمتين أفكار في الطبيعة الإلهية تضفي الألوهية على ظواهر الطبيعة[xvi].

وكان القانون الروماني والفروسية الرومانية يعبران عن أصل واحد في الحضارة الرومانية، وهو العقيدة الوثنية التي كانت شائعة بين الرومان[xvii].

والمتأمل للعقيدة في أسفار اليهود وتطورها يرى أن الديانة اليهودية كانت في أصلها – كما ينبئنا القرآن – ديانة توحيد تتصف بها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال والتجرد من مظاهر النقص جميعها، والمخالفة للحوادث في كل شيء كما هو الشأن في الدين الإسلامي.

ولكن يظهر من التأمل في أقدم أسفار توراتهم، أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم لهذه الأسفار، فتصوروا الله تعالى في صورة مجسمة.

وبالنسبة للمسيحية، فإن مكان الأناجيل فيها مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوها من أفكار هي شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء، أي: إنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم.

وكانت الجزيرة العربية قبل نزول القرآن الكريم تعج بركام من العقائد والتصورات، ومن بينها ما نقلته من الفرس، وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية في صورتها المنحرفة مضافاً إلى ذلك وثنيتها الخاصة، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك في قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ

الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}[xviii].

ونقصد من كل ما أوردناه، أن حقيقة الذاتية الحضارية لأمة ما تتبدى من خلال أبعادها الدينية والفكرية التي تكون بمثابة النهج الدافع لصياغة هذه الأبعاد في حركة الواقع، وما الوسائل المادية (المدنية) إلا أدوات تستخدم على الوجه الذي يحقق الغاية التي تتجه إليها هذه الحضارة، فالحضارة من حيث الجانبين المادي والمعنوي لا تنقسم؛ وإنما تتكامل، فالحركة الحضارية يجب أن تتم داخل إطار الثبات: ثبات القيم، ثم حركة الوسائل التي تحيل تلك القيم إلى برنامج عملي يميز الحضارة إبان مسيرتها، ويسمها بسمتها الخاص.

وكأمثلة واقعية على ذلك، نجد أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى لم يستطع أن تجري حركته داخل الإطار الطبيعي الذي تتحرك فيه الحضارات من خلال القيم الدينية والعوامل العقيدية؛ لأنه سرعان ما اصطدم بالمسيحية واختلف العلماء والمفكرون مع رجال الدين، وانفصلت الحضارة عن العقيدة، وحاولت إنشاء عقيدة وضعية تحل محل القيم الدينية الأصلية، فتحجر العقل في ظل سلطة رجال الدين.

ومن هنا يتبين لنا مدى التأثير الحيوي الذي تؤديه الفكرة الدينية في تكوين الحضارات، عندما تتقدم العلاقة الحيوية بين النزعة الدينية؛ الممثلة في تعاليم الديانة، وبين السند المحسوس التي تمليها عليه منظومته العقيدية والفكرية، والعقلية الأوروبية في العصور الوسطى والعقلية العربية قبل الإسلام تقدمان لنا صدق هذه الفكرة.

أما الإسلام، فإنه يبني أساسه على فطرة الإنسان، فإذا كان الإنسان مدنياً بطبعه – كما يقال – فهو متدين بفطرته.

وما كان الله تعالى – جلّت حكمته – أن يخلق الخلق ويوجد البشر، ثم يتركهم هملاً بلا دين جامع متكامل؛ ذلك لأن الدين نزعة متأصلة في النفوس، والاعتراف بالألوهية حقيقة كامنة في أعماق البشر منذ الأزل.

والدين القيم في نظر الإسلام هو فطرة الله، والناس جميعاً خُلقوا على هذه الفطرة الدينية، وعلى تلك الجبلة القائمة على معرفة الله والاعتراف به ، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[xix].

وبهذا الفطرة انطلق الإسلام – ومن خلال تعاليمه وقيمه – ليقدم حضارة معطاءة في المجالات شتى، وقدم تفاصيل لتنظيم الحياة من خلال أحكامه الشرعية، ووفر للإنسان أسساً متكاملة لحياة حضارية كريمة لم تتوفر في أي مذهب من المذاهب الفلسفية على اختلافها[xx].

ونُتبع هذه الفقرة فقرة أخرى تتعلق بها، وتحكي عن إظهار القرآن الكريم لدور الأنبياء في قيام الحضارة.

إذ بيَّن القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا دعاة عبادة ومعلمي شريعة فحسب؛ بل كانوا مؤسسي مدنيات وحضارات وكانت مواقفهم وسيرهم عبراً وهم قدوة ونماذج تحتذى في البطولة والصبر والتفاني في خدمة الإنسانية، فصارعوا الباطل وقاوموا الظلم وجاهدوا في الله حق جهاده.

وهذه أبرز مظاهر الحضارات، ودور الأنبياء فيها:

فهناك من يذهب إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذي اكتشف الحرف، انظر قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [xxi]، فمنذ ذلك الوقت استعمل العرب الحروف مقام الأرقام في كتاباتهم التي اكتشفها إبراهيم عليه السلام بوحي من الله من منازل القمر.

وأما الدليل على ذلك من السنة عن ابن عباس، قال: حينما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أول من كتب بالحروف العربية قال: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهذا يعني أنه تعلمها من أبيه عليه السلام وهو أول من كتب بها.

وكان للحضارة العربية الفضل في اكتشاف أول صك للنقود في العالم سبق الصك اليوناني بأكثر من ألف عام، وهذا ما تشير إليه الآيات في زمن يوسف عليه السلام في قوله تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [xxii]، ويستدل على ذلك بما عثر عليه من نقود كانت موجودة في هذه لحضارة.

وكان للأنبياء في مسيرة الحضارة الانسانية دور بالغ الأثر في نهضتها سواء كان بالأثر الفعلي الملموس أو بالقواعد النظرية الداعية إلى الكسب المشروع ونبذ الاستغلال وإيفاء الكيل، كما وجدنا ذلك عند قوم شعيب، ونبي الله إبراهيم، ويوسف الذي أحسن تخطيط وإدارة البلاد عند الأزمة الطاحنة التي هددت البلاد، فعم الرخاء والعدل في البلاد.

وأيضاً: كانت الخطوط التجارية ــ وقت وصول سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى منطقة مكة ــ تمر بعرفة وليس ببطن الوادي حيث بيت الله، وذلك لانعدام الماء والناس والزرع، فكان أول من سكن الوادي وهو على هذه الحال إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، ومع ظهور ماء زمزم بدأ الوضع يتغير ودلت الطير ركاب القوافل إلى التغيرات بالوادي، وما إن أعلن إبراهيم الحج وبدأ الناس يلبون دعوته حتى اتخذ بعض الناس بطن الوادي سكناً، مما مهد قيام نقطة خدمات للقوافل والحجاج، فتمصَّر بطن الوادي مع الوقت حتى غدا محطة استراتيجية غاية في الأهمية، وهكذا تحول بطن الوادي تدريجياً إلى ممر تجاري بعد أن تحولت إليه خطوط القوافل المجاورة لتوفر المياه وتكاثر الناس فيه بالمقارنة مع زمن ما قبل دخول إبراهيم عليه السلام، وفي هذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـــذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [xxiii].

ويمثل نبي الله شعيب امتداداً لسلسلة الأنبياء السابقين الذين جاؤوا حاملين لواء التوحيد في يد والعمران والحضارة في اليد الأخرى، إذ جاء في مرحلة تحول الإنسان في مجتمعه إلى صورة بشعة، فضاعت إنسانيته، وانتزعت الرحمة من قلبه، ففي قوله تعالى: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [xxiv]، فالآيات تنهى عن النقص في الكيل والميزان عند البيع والشراء، وكل شيء ينقص بالأخذ أو بالتصرف فيه عن غير رأي وإذن صاحبه يسمي بخساً للشيء.

وفي قوله تعالى عن شعيب ونصحه لقومه التي تكررت في مواضع عدة من القرآن كتأكيد ألا نقع في مثل ما وقعوا فيه، فالله سبحانه وتعالى قد حدد حركة الحياة التي تفسد في الأرض، فلو أنه أباح الربا مثلاً؛ فسيزداد الغني على غناه والفقير فقراً، وهذا ما نراه في عالمنا اليوم، فالغنى الفاحش والفقر المدقع يخل بميزان الحياة، وتنشأ عنه الحوادث والكوارث والإرهاب والعداء المستحكم بين الشعوب والأفراد، ولذلك قيد الله حركة المال هنا.

وعلى هذا فنبي الله شعيب كان مصلحاً اقتصادياً من الطراز الأول لما يؤدي إليه الإخلال بمبدأ العدل، وإشاعة الظلم إلى انهيار بنيان المجتمعات التي أراد الله بها أن تؤسس على التقوى وإشاعة المحبة والتآلف بين أفراد المجتمع[xxv].

ونأتي إلى التفسير العربي الإسلامي للتاريخ والحضارة؛ وهنا يمكن القول أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تفقد الحس التاريخ الواضح، فضلاً عن دعوى التعلق بفهم مغزى فلسفي للتاريخ في حركته العامة.

ولكي ينشأ حس تاريخي في جماعة من الجماعات، لا بد من تأثير عاملين أساسيين، الأول: وجود دين عام أو شبه عام يقدم لهذه الجماعة تفسيراً للحياة، ومغزى للوجود يرتبط فيه الماضي بالمستقبل، وبذلك تصبح بدايات الأشياء ونهاياتها لها معناها في الحس الإنساني، ويتمثل ذلك في وعيها بالتاريخ بوصفه الوعاء الزماني الذي تتحرك فيه هذه الأشياء نحو غاياتها.

والعامل الثاني: هو التشكيل الاجتماعي والتنظيم السياسي المتماسك الذي يعطي هذه الجماعة وعياً خاصاً بذاتها الحاضرة ورسالتها الإنسانية مهما يكن أمر هذه الرسالة، فمثل هذا الوعي هو الذي ينشئ في ضمير الجماعة الحس التاريخي بالماضي ومغزاه بالنسبة للمستقبل، وبعبارة أخرى فإن المجتمع الإنساني يحتاج لكي يتحقق له وعي ما بفكرة التاريخ أن تكون لديه فلسفة ما للحياة الدينية تفسر مغزاها أو تسوغ حركتها.

كان التصور الديني عند العرب قبل الإسلام خاصاً بأفراد القبيلة وإلهها المحلي الخاص، وهذا التصور لا يساعد على إيجاد وعي تاريخي إلا في إطار من علم الأنساب وقصص الأيام التي تحكي بطولات أفراد القبيلة.

افتقد المجتمع العربي قبل الإسلام الإيمان بدين عام أو شبه عام يمكن أن يعطيه للوجود، بما في ذلك الحس التاريخي المتميز بشخصيته، ولعل هذا التشتت الوثني كان أحد المقومات الأساسية التي حجبت نشأة الشعور التاريخي عند العرب قبل الإسلام.

وقد ظلّت العصبية القبلية هي الرباط الأكبر الذي يربط الوحدة الاجتماعية في أنحاء الجزيرة، وفي القرآن الكريم إشارة واضحة الدلالة على صفة هذه العصبية في قوله تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}[xxvi].

ولقد حالت الجاهلية من دون الاجتماع السياسي الموحد قبل الإسلام، فعاش معظم العرب في قبائل متحاربة، فقد تجتمع قبائل عدة في حلف على حرب، فيكون بينها سلام مؤقت. إذن، افتقد العرب قبل الإسلام المفهوم الكوني للتاريخ الذي يربط بين ماضي الحياة وحاضرها على أساس روحي عميق أو

فلسفي شامل، وبظهور الإسلام كدين عالمي من جهة، وكتنظيم سياسي شامل من جهة أخرى، توسعت فكرة الروابط الاجتماعية بين الأفراد، فبدأ إحساس الجماعة الإسلامية الوليدة بذاتها الحضارية الخاصة في الظهور، وأخذت بواكير الشعور التاريخي طريقها إلى ضمير المسلم، فشرع المسلمون في الاهتمام بالتاريخ تدريجياً حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً[xxvii].

وُلد علم التاريخ عند المسلمين من أول الأمر علماً مستقل الشخصية واضح الخصائص لأنه نشأ على الأصول نفسها التي قام عليها علم الحديث، وهي الضبط والدقة والأمانة وتحري الصدق، فقد بدأ التاريخ عند المسلمين بالسيرة النبوية، وهي في ذاتها حديث نبوي طويل؛ لأن الحديث هو كل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير.

وقد استعملت كلمة (تاريخ) لأول مرة في الآداب العربية مع أخبار إدخال التقويم الهجري، ثم اكتسبت الكلمة معنى الكتب التاريخية في القرن الثاني الهجري، ثم تطور معنى التاريخ عموماً باستعمال كتب الحوليات لهذه الكلمة، وبدأ استعمالها يتم تدريجياً منذ القرن الثالث الهجري. وقد بدأ علم التاريخ بدراسة السيرة النبوية ومغازي الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الاهتمام بالصحابة والتابعين كمصدر للكتابات التاريخية، وما ورثه العرب بعد الإسلام من أخبار الجاهلية وقصص الأيام والأنساب، وكذلك تسربت بعض المعارف التاريخية إلى بعض الخاصة من المسلمين، فاهتموا بالحوادث التاريخية، ومثّل هذا مصدر الكتابة التاريخية[xxviii].

ويعد المحدثون روَّاد الدراسة التاريخية عند العرب، فهم الذين اهتموا بدراسة المغازي، ورواية أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، وأسسوا بذلك فيما بعد منهجاً في توثيق الرواية ومصادرها، يعد مثلاً أعلى في التحقيق التاريخي والضبط العلمي، فقد اهتمت كتب الحديث بقواعد التحديث والرواية، وأسست منهجاً علمياً دقيقاً في توثيق مصادر الخبر، وفرّقت في ذلك بين علمي الرواية والدراية، وفصّلت القول في شروط كل منهما.

وإذا كان المؤرخ يبدأ دراسته بالبحث في صحة الوثائق التي بين يديه ليتأكد من صحتها، ثم يقارن بين هذه الوثائق ويرجح بعضها على بعض بناء على ما تحقق لديه من أصالة بعض هذه الوثائق ودقتها في وصف ما حدث في الماضي فعلاً، فلقد كان منهج المحدثين في الضبط وتعديل الرجال أو تجريحهم خير عون على تحقيق غايته[xxix].

تطور علم التاريخ عند المسلمين حتى وصل إلى التفسير الحضاري وهو الشكل الذي تبلور بوضوح على يد ابن خلدون، وتطورت فلسفة التاريخ عند المسلمين بظهور ابن خلدون، فانتقلت من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري، وقد أفاد ابن خلدون من تحرر فكرة التاريخ من الاعتماد على المنقول، وتعلق بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارة الإنسانية والتعليل العقلي للمادة التاريخية[xxx].

ويُستخلص مما عُرض سابقاً عن الحضارة الآتي:

1- إن الحضارة تعني الإقامة في الحضر في مقابل ساكن المدينة، وذلك من خلال التعريفات اللغوية.

2- إن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين كل من الثقافة والحضارة، إذ إن لكل حضارة ثقافتها الخاصة.

3- إن هناك بعض التعريفات التي تؤكد على أهمية البعدين الروحي والأخلاقي في الحضارة في مقابل الجانب المادي، وهو ما اصطلح عليه باسم المدنية.

4- أهمية الدور الذي تؤديه الفكرة الدينية في حركة التاريخ البشري.

5- ونجد أن تعريف لفظ الحضارة ينمو في التركيز على البعدين الروحي والأخلاقي الذي يشير إلى الحضارة في جانبيها المعنوي والثقافي، والبعد الثاني هو البعد المادي الذي يمثل طور المدنية[xxxi].

ثالثاً _ مصطلح الحضارة وإشكاليته:

هناك خلط واضح في فهم معنى الحضارة، مؤداه التباين الفكري والتاريخي للحضارات المختلفة، مما يكون له انعكاساته المتعددة عند تناولنا لمعنى اللفظ ومعانيه وأطره وملابساته.

فألفاظ مثل: الحضارة والمدنية والثقافية والعلم كلمات شائعة كثيراً ما تتردد في كتابات المفكرين والمؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وغيرهم، وتتردد هذه الكلمات بوعي وبغير وعي أيضاً، حتى أن البعض يستخدمها على أنها تحمل معاني واحدة، إذ يمكن استخدام كل لفظ مكان الآخر، دون تمييز ومراعاة لمنطق اللغة والاشتقاق.

وبعض الكتَّاب يميز بين لفظي: حضارة ومدنية، فيجعل لفظ الحضارة خاصاً بالتكوين الثقافي والمعنوي لمجتمع ما، ولفظ المدنية يعد أكثر اتصالاً بالمظاهر المادية المتصلة بالحياة العلمية.

وهذه التفرقة بين الحضارة على أنها تختص بالجوانب الثقافية والمعنوية، بينما تختص المدنية بالجوانب المادية والعملية، أدت إلى اقتراب لفظ الحضارة من لفظ الثقافة إلى حد صعوبة التمييز بينهما.

إذاً كلمات: الحضارة والمدنية والثقافة؛ تُستخدم أحياناً وكأنها تحمل معاني واحدة، إذ يمكن استخدام كل منها بصورة توحد بينها جميعاً من حيث المعنى والاستخدام، وهذا تفسير ترفضه اللغة، ويرفضه الواقع الحضاري للمجتمعات، وهذا يضطرنا إلى تناول كل حضارة ككيان بذاته، فلكل حضارة تصورها الخاص الذي يسيطر ويوجه نتاج الحضارات جميعها[xxxii].

ولذلك يتنوع تعريف لفظ الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا وعلماء فلسفة التاريخ والموسوعات، وتفسير الإسلام لها.

ففي علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) أبرز الأنثروبولوجي تيلور سنة 1871م بأن الثقافة: كل مركب يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية، وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كونه عضواً في جماعة.

وأشار الأنثروبولوجي الأمريكي كلايد كلاكهون أن الحضارة تعني النتاج التاريخي لتنظيم المعيشة، وذلك من خلال مشاركة الجماعة.

واعترفت دائرة المعارف الأمريكية بصعوبة تعريف لفظ الحضارة، فأحياناً أشارت إلى أنه النظام الذي يُوجد فيه المواطن الذي يملك الوسائل الجيدة والتحكم النفسي، وذلك هو الإنسان المتحضر، وبهذا المعنى، فإن كتّاب القرن التاسع عشر استخدموا لفظ الحضارة للتعبير عن التقدم في عالم المعرفة والإبداع الذي يسمح للإنسان أن يسلك السلوك الحضاري.

وفي القرن العشرين ذُكر أن التصور الأنثروبولوجي للثقافة هو مجموعة تعاليم فطرية مكتسبة بالسلوك، وعرّفوا السيرة الحضارية أنها السلوك الذي يسلكه الفرد بوصفه عضواً في مجتمع منظم من الأفراد، إذ إن كل فرد في ذلك المجتمع يعد نتاجاً تاريخياً لتلك الحضارة، والحضارة هي مجموع خبرات الحياة بالنسبة لكل فرد، وجاء أيضاً أن الحضارة ليست هي التقدم التكنولوجي فحسب؛ وإنما هي الارتقاء العقلي والإيمان بالقيم الإنسانية لخير الإنسان وسعادته، وأن الحضارة بلفظ آخر هي المدنية، وتعني: التمدن والتحضير[xxxiii].

وعند فلاسفة التاريخ والحضارة، نجد هيجل يعرّف الثقافة والحضارة (بمزيج من التناقضات)، فهو يرى أن كل عصر أو مدة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية، كلها جوانب أو نواحٍ للمجموع الحي، ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس، وأن كل مدة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر الصراع دائماً، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي الموحد، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد، فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعَّال من كل من الفرضية ونقيضها، وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى المطلق الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض.

وفي فلسفة التاريخ عند هيجل، ليس موضوع التاريخ أفعال أفراد جزئيين؛ وإنما موضوعه ذلك الصراع بين العوامل والقوى المتعارضة، ووعي الروح بذاتها بل تحقيقها لذاتها من خلال هذا الصراع[xxxiv].

ونكرر هنا ما ذكرناه سابقاً؛ إذ يرى ول ديورانت أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وأنها تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[xxxv].

وأما أرنولد توينبي – الذي تعد نظريته من أهم نظريات فلسفة التاريخ – فيرى أن التاريخ هو إحدى النوافذ التي لا تحصى التي تطل على الحقيقة، ويعرِّف المدنية: بأنها أصغر وحدة للدراسة التاريخية يصل إليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلاده، وفي رأيه أن الحضارة تنشأ عن الأديان فيربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية، ويقول: إن الحضارة الغربية وحدها التي تحافظ على الشرارة الإلهية الخلاّقة، وهي وحدها القادرة على أن لا تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها، ويرى أن الإمبراطوريات ليست مقياساً للحضارة؛ بل على العكس، إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة.

وهناك من تناول الحضارة للدلالة على جانبين، الجانب الروحي والجانب المادي أو التكنولوجي.

وفي القرآن الكريم نجد فيه فيما يقابل البداوة والترحال: حاضرة ومتحضرة[xxxvi]، يقول تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}[xxxvii].

ومن الفكر الإسلامي الحديث نختار رؤية مالك بن نبي الذي اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به، وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف كونها قضية حضارة أو لا وقبل كل شيء، فوضع كتبه جميعها تحت عنوان: «مشكلات الحضارة».

واهتم ابن نبي بدراسة التاريخ، يرقب فيه سير الحضارات، ويستخلص القواعد الثابتة والسنن التي لا تبدل لها، وقد طرح القواعد الأساسية لفعالية الإدارة الإنسانية وقوتها في صنع الحضارة.

ولذلك يرى أن مشكلة كل شعب هو في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته مالم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها. ويرى أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقدة الدينية، لذلك ينبغي إذا أردنا أن نبحث في حضارة من الحضارات أن نبحث عن أصلها الديني الذي بعثها، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجاً، أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام.

ويؤكد ابن نبي أن البناء الحضاري يقوم على مقومات الروح والعقل معاً، فإن أي مجتمع لا يستطيع البقاء بمقوم دون الآخر.

وأخيراً فإنه يعرف لنا الحضارة بما يأتي: «إن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»[xxxviii]

والآن بعد تبيين بعض المصطلحات المتداولة والمعروفة أعلاه، نريد أن نتبين مدى أصالتها بالنسبة لتراثنا العربي الإسلامي؛ فربما سيستغرب الكثيرون أن مصطلح الحضارة مصطلح غير عربي النشأة، وهو أحد الترجمات لمفردتين في اللغات الأوروبية منبثقتين عن جذرين لاتينيين يختلف كل منهما عن الآخر، وقد نقل بعض (المثقفين) العرب معاني هاتين المفردتين الأوروبيتين إلى اللغة العربية وفرّغوها في ألفاظ عدة حسب فهمهم لهذه المعاني وتلك الألفاظ، كان منها: (الحضارة).

لقد انتقل المفهوم الغربي إلى لفظ (الحضارة) العربي، وأيضاً إلى لفظي (المدنية) و(الثقافة) عبر ترجمة لفظ Civilization التي تعود إلى اللفظ اللاتيني Civits، وأيضاً عبر ترجمة لفظ Cltre التي تعود إلى الجذر اللاتيني Cltra، لذا علينا البحث في معاني هذين اللفظين.

فقد اشتقت Civilization من اللاتينية Civis التي تعني المدني أو المواطن الساكن في المدينة، وهذا المعنى قريب من المعنى المقصود في كلام الفلاسفة العرب الذين تأثروا بالترجمات اليونانية عندما كانوا يذكرون أن (الإنسان مدني الطبع) ، ويعنون بذلك: أنه (اجتماعي) ، فمدني هنا كانت تعني: (أهلي) ، أي: إنه غير وحشي.

وأُخذت Cltre عن اللفظة اللاتينية (Cltra من فعل Colere) بمعنى حرث أو نَمّى، وقد ظلت اللفظة مقترنة بمعنى حراثة الأرض وزراعتها طوال العصرين: اليوناني، والروماني، ومع أن شيشرون استعملها بالمعنى المجازي داعياً الفلسفة: (mentis Cltra) أي: زراعة العقل وتنميته، إلا أن هذا الاستعمال ظل نادراً في اللغة اللاتينية[xxxix].

ولعل ترجمة كتاب: (إتحاف الملوك الألبا بسلوك التمدن في أوروبة) في عهد محمد علي باشا أوائل القرن التاسع عشر الميلادي شهد ظهور أول ترجمة لكلمة (Civilization) بمفاهيمها الغربية الحديثة إلى العربية. وواضح أن لفظ (المدنية) صيغ في هذه الفترة مقابلاً لها للدلالة على المجالين المادي والمعنوي، وقد ذكر رفاعة الطهطاوي في كتابه: (مناهج الألباب المصرية) ما يوضح ذلك، أي: إن (التمدن) و (المدنية) كانتا تطلقان إطلاقاً شاملاً، وكذلك صيغت اللفظة نفسها في ترجمات كتب القانون، خصوصاً ما أطلق عليه: (القانون المدني)، وظل هذا المفهوم الشامل (للمدنية) مستخدماً طوال القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين صيغت كلمة (حضارة) ترجمة لـــ (Civilization)، وربما كان علي مبارك ومن بعده أحمد لطفي السيد أول من استخدم كلمة (حضارة) للدلالة على مفاهيم (Civilization) ، وابتداءً من الربع الثاني من القرن العشرين شاع استخدام كلمة (الحضارة) بديلاً عن (المدنية) بمعناها الشامل.

وفي عشرينيات القرن الماضي أطلق سلامة موسى لفظ (ثقافة) على مفاهيم (Cltre) قاصداً بها: المعارف والعلوم والآداب والفنون، يتعلمها الناس ويتثقفون بها، بينما أطلق (الحضارة) مقابلاً لكلمة (Civilization) قاصراً مدلولها على الأمور المادية والمحسوسة.

وفي أواخر الخمسينيات أُطلقت لفظة (المدنية) على الظواهر المادية في حياة المجتمع ترجمة لـــ (Civilization)، بينما ترجمت Cltre إلى (حضارة) للدلالة على الظواهر الثقافية والمعنوية، وقد أسهمت في ذلك ترجمات علماء الاجتماع والإنثروبولوجيا العرب.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين أخذت المعاجم والقواميس تترجم (Civilization) إلى (حضارة)، مع نقل التعريفات والمفاهيم المرتبطة بالكلمة الأوروبية كما هي في بيئتها.

ومن خلال هذا الاستعراض يتضح لنا أن هناك شقين في المفهوم الغربي الذي أراد بعض المثقفين العرب نقله إلينا من خلال ترجمة (Civilization) و(Cltre): شق مادي محسوس، وشق معنوي ومعرفي.

وهنا لا بد أن نقول: إننا غير ملزمين بقبول محتوى المفهوم ولا بالتمسك بمصطلح ارتآه بعض المثقفين إلا بقدر ما يوافق قناعاتنا، وهذا مقتضى كوننا عقلاء وأحراراً، ومن هنا: وجب علينا مناقشة المفهوم وتمحيص المصطلح؛ فمن خلال مناقشة المفهوم الغربي الذي يعد مرجعاً للمفكرين العرب الذين نقلوه إلينا نستطيع التعرف إلى فحوى المصطلح ومدلولاته وملابساته التي تسللت إلى المصطلح العربي، ونستطيع أيضاً استيضاح مدى توافق ذلك المفهوم مع مفاهيمنا الإسلامية الأصيلة.

لقد اتضح أن المفهوم الغربي خرج من كلمتين تدل إحداهما في أصل معناها على الفلاحة (غرس ، ثم إنماء ، ثم حصد)، وتدل الأخرى على النسبة إلى المدينة، بينما خرج المصطلح العربي (حضارة) من منطلق أن (الحضر) بخلاف البدو، وعليه: فإن الكلمة (حضارة) تدل على الاستقرار الذي تنشأ عنه المدينة التي هي أصل Civilization، ويمكن مناقشة ذلك فيما يأتي:

أولاً ــ ارتباط مفهوم (الحضارة) بالمدن والنظرة الأوروبية للتطور أخرج مجتمعات بشرية مما يسمى بالمجتمعات البدائية من دائرة الحضارة، وهذا لا يستقيم إنسانياً؛ فالحضارة ميزة إنسانية نظراً لتفرد تكوين الإنسان العقلي والنفسي والعضوي، وهذا ما عناه ابن خلدون في مقدمته عندما أدخل البدو (من دون مدن) في مراحل العمران، وقريب من ذلك تقريرات علماء الإنثربولوجيا؛ فهم يقصدون بالحضارة: جماع حياة أي مجتمع بدائي أو متقدم؛ فلكل جماعة إنسانية من النشاط (الحضاري) ما تهيأ لها لتتكيف مع بيئتها وتحقق غايتها من التحسين والسعادة. وهكذا يكون لكل جماعة إنسانية حضارتها التي أبدعتها، وكما أنه ليست هناك جماعات كاملة التحضر كذلك لا توجد جماعات وحشية أو بدائية تماماً.

فالبدو مثلاً ليسوا خلواً من (الحضارة)، وقد كان لهم في بلاد العرب قبل الإسلام أعرافهم وقيمهم الأخلاقية التي ترتكز في تقريرها وتنفيذها على إعمال فكر، وكان لهم شِعْر يحمل كثيراً من الحكمة والتأمل والخبرة، كما كانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء[xl].

وقد أشار علماء الأجناس الجدد حسب الموسوعة البريطانية إلى أن شعوباً من دون مدن مثل قبائل بولينيزيا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية كانوا على درجة عالية من (الحضارة)؛ بمعنى أنه عند التدقيق وجد أنه كانت لديهم لغات، وفنون أصيلة، بشكل يثير الإعجاب لظروفهم ومؤسساتهم المتطورة، وكان لديهم أيضاً ممارساتهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وأساطيرهم الوثيقة التي هي ليست بأحسن ولا بأسوأ من كثير من تلك التي تسود اليوم بين دول أوروبة[xli].

وقد قدمت (الحضارات الماضية) في أطوارها المتعددة إنجازات تعد الأساس الذي شيد عليه البناء الحضاري الأوروبي: كاكتشاف النار، وصهر المعادن، وتدجين الحيوانات، والكتابة، والعجلة، وابتكار الصفر ... بل قدمت جماعات بشرية بدائية اختراعات كانت أنفع للإنسان من الصعود إلى القمر، وهل يقارن هذا الصعود من جهة نفعه للبشرية باختراع رغيف الخبز مثلاً ؟! ونخلص من كل ذلك إلى أن الحضارة نسبية، وأنها تراكمية، كما أنها أيضاً كلمة محايدة لا تحمل في ذاتها مدحاً ولا ذماً.

ثانياً ــ إن مفهوم (الغرس، ثم الإنماء، ثم الحصد) جعل كثيراً من الباحثين ينظرون إلى (الحضارة) على أنها تسير في خط تصاعدي دوماً، حتى إن بعض المفكرين كهيجل وكانت وفيكو على فروق بينهم قسموا التاريخ إلى ثلاث مراحل: مرحلة الهمجية، ومرحلة البربرية، ومرحلة (الحضارة)، وبناءً على ذلك المفهوم تكرست النظرة إلى أحوال المجتمع الأوروبي المعاصر على أنها (الحضارة)، بينما المجتمعات الأخرى الماضية أو المعاصرة مجتمعات همجية، أو في أحسن الأحوال في مرحلة متدنية من (الحضارة)، ولذلك ظهرت عبارات مثل: المجتمعات المتخلفة، المجتمعات النامية، اللحاق بركب الحضارة، تضييق الفجوة ... وفي الوقت نفسه أعطى هذا المفهوم تصوراً عن قيم المجتمع الأوروبي الذي تدعي قمة (الهرم الحضاري) ومعتقداته وأنماط سلوكه ووسائل حياته.. أنها الأرقى والأصلح، بينما عدّت قيم المجتمعات الأخرى ومعتقداتها وأنماط سلوكها رجعية ومتخلفة، ومن ثم: ظهرت عبارات مثل: رسالة الرجل الأبيض، أتباع الحضارة الغربية بحلوها ومرها، الدور التحضيري لأوروبة ... وبالفعل فقد تعاظم الدور الأوروبي في المجتمعات الأخرى، وأخذ الأوروبيون في (غرس) قيمهم وأفكارهم ونمط معيشتهم، والعمل على (إنمائها)

وسط هذه المجتمعات، والتطلع والصبر لـــ (حصد) ثمرتها، وهو ما نعده نحن غزواً حضارياً، بينما يدعي بعضهم أنها مجرد عملية (تحضير) قسري.

ثالثاً ــ إن هذا المفهوم بخلفياته التاريخية الأوروبية ولّد نوعاً من فكر التبعية تجاه الغرب؛ فنسق التطور الأخير للمدينة الأوروبية أوجد مدناً كبيرة بمثابة مراكز عالمية تمثل بؤراً تتشابك حولها مدن مختلفة رغم تباعدها، غير أنها ترتبط بالمدينة (الأم)، وتكون هذه المدن أخوات في المدينة الأم، وهذه هي النظرة الإغريقية نفسها تجاه المدينة الأم (أثينا)، ولكن طبيعة العلاقات المعاصرة أوجدت أنماطاً من الارتباطات مختلفة عن تلك التي كانت على عهد الإغريق، ومن هنا تكرست النظرة إلى طبيعة العلاقة المفترضة بين دول العالم (النامي) ودول العالم (المتحضر) بأنها علاقة تبعية، ثم نشأت المحاور والأحلاف والعلاقات الخاصة مع المراكز (الحضارية) الأوروبية[xlii].

رابعاً ــ صاحَبَ نشوء المفهوم الأوروبي أو سبقه انفكاك المدينة الأوروبية من هيمنة الكنيسة حيث كانت الكنيسة مركز المدينة الأوروبية، والمسيطرة عليها أو بالأحرى: انفكاك المجتمع الأوروبي من الدين، وعلى ذلك قامت حضارة أوروبة المعاصرة، ونتج عن ذلك أمران مهمان:

أما الأمر الأول: فهو بروز مفهوم (الحضارة) أو (المدنية) على أنه عكس مفهوم (الدينية)، ومن هذا التصور ظهرت عبارات: الدولة المدنية، والقانون المدني، والثقافة المدنية، في مقابل: الدولة الدينية، والقانون الديني، والثقافة الدينية، وهكذا انتقلت (اللادينية) إلى مجتمعاتنا عبر (المدنية) رغم التباين الكبير بين دين النصرانية ودين الإسلام.

والأمر الثاني: نشوء القومية الحديثة على أطلال الانتماء الديني أو المذهبي، ومن ثم ربطت الحضارة بالأرض أو القومية؛ ولهذا السبب لا نجدهم يطلقون اسم (الحضارة المسيحية) على حضارتهم رغم اشتراكهم في الانتساب إلى (المسيحية)، إضافة إلى سبب آخر: هو أن انكماش المساحة التي يتحرك فيها دينهم وأي دين خلاف الإسلام جعلهم لا يتركون للدين إلا ركناً ضيقاً، هو كونه أحد مكونات الشق المعنوي في (الحضارة) أو (المدنية)، وهذا بخلاف الإسلام الذي تتأبى طبيعته على الانكماش أو الانزواء؛ فهو أوسع من أن تحتويه دائرة في (الحضارة) أو حتى كل الحضارة؛ لأنه يشمل الحياة كلها، ولذا خرجت منه الحضارة وانتسبت إليه وليس العكس؛ وهذه خصيصة إسلامية فريدة.